International Journal of `Umranic Studies
Jurnal Antarabangsa Kajian `Umran
المجلة العالمية للدراسات العمرانية
journal homepage: www.unissa.edu.bn/ijus

تَعْظِيمُ البَلَدِ الحَرامِ في أدبيَّاتِ المُفاخَرَةِ بين الحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ

الأستاذ الدكتور مصطفى محمد رزق السواحلي

الأستاذ بكلية اللغة العربيَّة

جامعة السلطان الشريف علي الإسلامية

بروناى دار السلام.

Vol.2, Issue 2 | July 2019

الخلاصة

يتناولُ هذا البحثُ تجلياتِ تعظيم البلد الحرام في أدبيَّات المفاخرة بين الحرمَيْن الشريفَيْن، ومن المعلوم أنَّ فنَّ المفاخرة يقتضي عادةً ذِكْرَ مثالب الخَصْم، ومع ذلك فقد اتَّفَق الطرفانِ المتخاصمانِ أدبيًّا على حُرْمةِ البلد الحرام، ووجوبِ تعظيمه. وقد أثمر هذا الفنُّ أربعةَ نصوصٍ في المفاخرة بين الحرمَيْن، هي: المرورُ بين العلَمَيْن في مفاخرة الحرمَيْن؛ لأبي الحسن الزَّرَنْدِيِّ، ومفاخرة بين مكَّة المكرَّمة والمدينة المنورة، لمحمد بن سليمان، والحُجَجُ المُبِينة في التفضيل بين مكَّة والمدينة، لجلال الدين السُّيوطيِّ، ومقامة ساجعة الحرم في المفاخرة بين المدينة والحرم، للسُّيوطيِّ أيضًا. وقد رصد البحثُ مظاهرَ التعظيم التي أوردها المؤلِّفون الأربعة، وصنَّفَها حسب أبعادها: الدينيّة المبنيّة على الآيات والأحاديث والآثار الواردة في فضائل مكَّة المكرَّمة. والتاريخيّة القائمة على مسائلَ تاريخيَّة؛ كأوليَّتها وتحريمها وتعظيمها منذ الجاهليَّة. والإنسانيّة المتعلِّقة بمن عاشوا فيها من الأنبياء والخلفاء والعلماء. والجغرافيّة المبنيّة على وجود كثير من المشاعر المقدَّسة فيها. والرمزيّة المؤسَّسة على دَلالاتِ الألفاظ التي وظَّفها الأدباء توظيفًا مُوحيًا. والنفسيَّة الصادرة عن الإحساس بالسَّكِينةِ والطُّمَأنينة في رحابها. والأسْطوريّة التي تورَّط فيه بعض المؤلِّفين، فأوردوا حكاياتٍ مُخْتَلَقَةٍ، وبعضَ الأحاديث الضعيفة أو الموضوعةِ. وقد انتهى البحث إلى جملةٍ من النتائج أهمُّها: الحضورُ الحيُّ للحرمَيْن في الأدب العربيِّ وبخاصَّة في أدب الرحلات وأدب المفاخرات. وتميُّزُ نصوص أدب المفاخرات عن كتب الفضائل بما فيها من حِوارٍ حيٍّ يُغْرِي بالمتابعة. وامتناعُ طرف المعارضة عن ذكر ما يشينُ الحرمَيْن الشريفَيْن.

الكلمات المفتاحية

تعظيم البلد الحرام ؛ فنُّ المفاخرة ؛ مكَّة المكرمة ؛ المدينة المنورة.

والحريَّةُ الفكريَّة التي تمتَّع بها المفكِّرون في تناول هذه المسائل. ولجوء بعض المتفاخرين إلى أحاديثَ ضعيفةٍ وآثارٍ لا وَزْنَ لها؛ لنصرة مذهبهم. وإقحام بعضِ المؤلِّفين أنفسَهم في قضايا خلافيَّةٍ شائكةٍ، مثل المفاضلة بين الرَّوْضَةِ النبويَّةِ والكَعْبةِ المُشَرَّفةِ..

KEYWORDS

Glorification, Art of bragging, Holy Mecca, Medina.

ABSTRACT

This research deals with the manifestations of glorification the sacred city in the Literature of bragging between the two Holy Shrines. It is well known that the art of bragging usually requires mentioning the flaws of the adversary. However, the two parties agreed on the sanctity of the holy city. This art has yielded four texts in the bragging between the two sanctuaries, namely: "The passage between the two particular places in the bragging of the two sanctuaries"; by Abu al-Hasan al-Zarandi; "Bragging between Mecca and Medina" by Muhammad b. Sulaiman; "The arguments outlined in the preference between Mecca and Medina" by Jalal al-Din al-Suyuti; "Poetic Standing on the sanctuary" by al-Suyuti also. The research has monitored the manifestations of glorification mentioned by the four authors, and classified them according to their religious dimensions based on the Quranic verses and Hadiths in the virtues of Mecca; and historical dimensions based on the historical issues; in terms of priority and prohibition; and humanity related to the prophets, caliphs and scholars who lived in it; and geographical dimensions based on the presence of many sacred feelings in them; and symbolic dimensions based on the semantics used by the writers symbolically; and psychological dimensions based on a sense of tranquility and peace of mind in its vast space; and mythical dimensions in which some authors were involved, such as they made up fictional tales, and some weak or mythical Hadiths. The research has concluded to a number of results, the most important of them are: The living presence of the Two Holy sanctuaries in Arabic literature, especially in the literature of trips and bragging. The literary texts of bragging distinguish from the books of virtues, including a lively dialogue that encourages to follow-up. The opposition party declined to mention what defiles the two holy shrines. The intellectual freedom enjoyed by the intellectuals in dealing with these issues. Resort of some braggers to the weak and weightless hadiths and effects; to support their doctrine. Inclusion of some authors themselves in some thorny controversial issues, such as the trade-off between the Prophet's kindergarten and the holy Ka'ba.

مقدمة

لا رَيْبَ أنَّ مكَّة المكرَّمة هي أشرفُ بِقاع الأرض، وأوْلاها بالإجْلالِ والتعظيمِ؛ فقد أقسم الله بها في كتابه الحكيم غيرَ مرَّةٍ، وفيها الكعبة المشرَّفة التي جعلها الله مثابةً للناس وأمنًا، وتحتضنُ سائر المشاعر المقدَّسة التي تحمل دلالاتٍ دينيَّةً لا تخفى، ولا يكون الحجُّ إلا في مكَّة، بخلاف غيره من أركان الإسلام؛ فهي تؤدَّى في كلِّ مكانٍ، والصلاةُ في مسجدها خيرٌ من مائة ألف صلاة فيما سواه من المساجد، وقد أعطى الله الأمان كلَّ ما على بِساطها من إنسانٍ وحيوانٍ وطيرٍ ونباتٍ، وتوعَّدَ بالعذابِ الأليم كلَّ مَنْ يُعَكِّر صَفْو هذا المكانَ بأيِّ صورةٍ من صُوَرِ الإلحادِ، وفي المقابل وَصَفَ مَنْ يعظِّمون شعائرَ الله وحُرماتِهِ في هذا المكانِ الطاهر بأنَّهم أهلُ التُّقَى ونقاءِ القلوبِ.

وليس من همِّ هذا البحث الحديثُ عن فضائل مكَّة؛ فقد تضمَّنَتْه عشراتُ الأبوابِ في كُتبِ الفضائلِ والسُّنَنِ والتاريخِ والجغرافيا والرِّحْلات وغيرها، كما كُسِرَتْ عليه

مؤلفاتٌ عديدةٌ قديمًا وحديثًا، مستقلَّةً، أو مقترنةً بفضائلِ المدينة المنوَّرة أو بيت المقدس، حسبنا منها: [1]

1-فضائلُ مكَّة والسَّكن فيها؛ المنسوب إلى الحسن البصريِّ (ت110هـ). حقَّقه: سامي مكي العاني. الكويت: مكتبة الفلاح. (1405هـ).

2-فضائلُ مكَّة؛ لأبي سعيد المفضَّل بن محمد الجَنَدِيّ اليمانيّ (ت308هـ). حقَّقه: أبو عبيدة جودة محمد. (د.ن). (1440هـ).

3-فضائل مكَّة، للحافظ عبد الغني المقدسيّ (ت600هـ). ولم أقف عليه، وقد ذكر المؤرخون أنَّه في أربعة أجزاء.

4-إثارة الترغيب والتشويق إلى المساجد الثلاثة والبيت العتيق؛ لشمس الدين محمد بن إسحاق الخوارزمي (ت827هـ). (مخطوط).

5-الجامع اللطيف في فضائل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف؛ لكمال الدين محمد بن عبد الله بن ظهيرة المخزوميّ القرشيّ (ت960هـ). (مخطوط).

6-العقد الثمين في فضائل البلد الأمين؛ لأحمد بن محمد الحضراويّ المكيّ الهاشمي (ت1327هـ/ 1909م)، حققه: محمد زينهم عزب. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية. (2001م).

وإنَّما همُّ الباحث تأكيدُ فكرة تعظيم البيت الحرام من خلال أدبيَّات المفاخرة بين الحرمَيْن الشريفَيْن، ومن المعلوم أنَّ فنَّ المفاخرة يقتضي في العادةِ ذِكْرَ مثالب الخصم، والانتقاصَ منه، والتَّهْوينَ من قدره، ومع ذلك فقد اتفق الطرفان المتخاصمان أدبيًّا على حُرْمَة البلد الحرام، ووجوب تعظيمه، ولم ينبسْ طَرَفُ المعارضة ببنت شَفَةٍ تتعلَّق بشيءٍ من مثالب البلد الحرام، على نحو ما ذكر خصومُ البصرة والكوفة وبغداد ودمشق والقاهرة في مُفَاخراتهم؛ لأنَّه لا توجد مثالبُ أصلًا، فهي بقعةٌ بيضاءُ الصفحة، نقيَّةُ المُحيَّا، مُسَلَّمةٌ لا شِيَةَ فيها.

وقد اقتضى هذا البحث الوقوفَ على أبرز أدبيَّات المفاخرة بين الحرمَيْن الشريفَيْن، وعلى تجليات التعظيم بأبعاده المختلفة، ثمَّ استخلاص جملة من الدلالات المعتبرة في خاتمة هذا البحث.

* * *

أولًا: أدبيَّاتُ المفاخرةِ بين الحرمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ:

دعا الإسلامُ بما اشتمل عليه من تعاليمَ ساميةٍ إلى نبذ التَّفاخر والتَّكاثر بالأحساب والأنساب؛ ممَّا كان له أثرُه في تخضيد أشواك تلك الشجرة المُفْعَمة بحَسَكِ العصبيَّة القبليَّة، والتي تنتج غلمان شؤم كأحْمَرِ عادٍ من الفتن والحروب؛ ومن ثمَّ تحوَّل الأدباءُ بفنِّ المفاخرات من المواجهات المباشرة في عالم الواقع كما كان في الجاهليَّة إلى المبارزات الفنيَّة في عالم الخيال، بصورة تعكس الرقيَّ الحضاريَّ الذي بلغته الحياة العقليَّة للأمَّة العربيَّة، ومن ثمَّ نشأت المفاخرات الأدبيَّة الخياليَّة التي هي «حوارٌ يشترك فيه اثنان، فيعدِّدُ كلُّ واحد منهما مزايا أجداده، أو مزايا

(1) انظر في المزيد من المؤلفات حول فضائل مكة: الجندي، أبو سعيد الفضل بن محمد. (1440هـ). **فضائل مكَّة**. تحقيق: أبو عبيدة جودة بن محمد. (نشرة خاصة بالمحقق مهداة إلى المكتبة الشاملة). مقدمة المحقق ص13-17؛ الغبَّان، محمد بن عبد الله بن عايض بن عوض. (1421هـ). **فضائل مكة الواردة في السنة جمعًا ودراسة**. السعودية، الدَّمَّام: دار ابن الجوزي. ص33-39.

شيء من الأشياء محاولًا أنْ يُظْهِر سموَّها وتقدُّمَها على تلك التي يُقَدِّمها مُحَاوِرُه». [2]

ومصطلحات المناظرة، والمنافرة، والمفاضلة، والمحاورة، والمفاخرة... وغيرها مستعملةٌ في هذا المقام، ولكنْ غلب استعمالُ مصطلح المناظرة في الموضوعات الفكريَّة التي تثير خلافاتٍ عقديَّة أو فقهيَّة أو فلسفيَّة أو نحويَّة أو أدبيَّة... إلخ، حيث يقوم كلٌّ من المتحاورَيْن بالدفاع عن رأيه أو معتقده، وهدم معتقدات الآخر ودحض حُجَجِه، على حين غلب استعمال مصطلح المفاخرة في الموضوعات الدنيويَّة التي قد يكون غرضها التسلية واستعراض المعارف، مثل المفاخرة بين أصناف البشر، ومظاهر الطبيعة، والنباتات والأسلحة والعلوم والبقاع وغيرها، وقد استعمل مصطلح "المفاخرة" في ثلاثةٍ من النصوص الأربعة التي يقوم عليها هذا البحث؛ مما يجعل استعماله أقرب إلى الواقع والمنطق الأدبيّ.

وتُعَدُّ المفاخرات بين البِقاعِ من أقاليمَ ومُدُنٍ ومتنزَّهاتٍ ومَعالمَ تاريخيَّةٍ من أقدم المفاخرات زمنًا، وأكثرها حضورًا في أدبنا العربيِّ؛ وقد مرَّ هذا اللون الأدبيُّ بأربع موجاتٍ ارتبط وجود كلٍّ منها بازدهار الحضارة في الإقليم الذي غَمَرَتْه تلك الموجة، على النحو التالي:

الموجة الأولى: كانت في المفاخرة بين البصرة والكوفة باعتبارهما من أهم المدن المستحدثة في الدولة الإسلاميَّة، وقد كان لهما حضورهما الثقافيُّ الهائل وبخاصَّة في مجال علم النحو، حتى صار أمر الخلاف النحويِّ بين البصريين والكوفيين عمادًا للدرس النحويِّ حتى أيامنا هذه.

الموجة الثانية: كانت في المفاخرة بين مدن الأندلس، وبخاصة في القرنين السادس والسابع الهجريين، في سياق التنافس المرير بين ملوك الطوائف الذين سرت عدوى تنافسهم السياسيِّ، وتصارعهم على الحُكْم إلى ساحة الأدب.

الموجة الثالثة: كانت في مصر والشام في زمن سلاطين المماليك بعدما صارت القاهرة عاصمةً للثقافة العربيَّة والإسلاميَّة، وكان ملك سلاطين المماليك يشمل مصر والشام معًا، وقد غلب عليها طابع التسلية الأدبيَّة، أو الرفاهية الفكريّة إن صحَّ التعبير.

الموجة الرابعة: كانت بين مُدن اليمن في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريَّين، وهو القرن الذي شهد صحوةً مباركة حمل لواءها علماءُ متفرِّدون حسبنا منهم: أبو الفيض مرتضى الزَّبيديُّ (1205هـ) ومحمد بن علي الشَّوْكانيُّ (ت1250هـ). [3]

أمَّا المفاخرة بين الحرمَيْن الشَّريفَيْن فلم ترتبط بموجة معينة؛ لأنَّ مكانة الحرمَيْن ثابتةٌ لا تُزَعْزِعها عواصفُ السياسة، ولا موجاتُ المدِّ أو الجزر الحضاريّ، وإن كانت النصوص التي بين أيدينا تكاد تنحصر في القرنين الثامن والتاسع الهجريين؛ وقد كُتِبَتْ جميعًا في القاهرة على ما يبدو؛ إذ شاع هذا اللون الأدبيُّ في عصر سلاطين المماليك، وصار لونًا من ألوان الترف الفكريّ؛ دلًّا بالقدرة على التفنُّن التعبيريِّ في شتَّى المباني والمعاني المتقابلة ممَّا بين الأرض والسماء.

وقد وقف الباحثُ على أربعةِ نصوصٍ في المفاخرة بين الحرمَيْن الشريفَيْن، هي:

---

(2) الصديق، حسن. (2000م). **المناظرة في الأدب العربي الإسلاميّ**. القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان). ص196.

(3) انظر: السواحلي، مصطفى محمد رزق. (1428هـ/ 2007م). **المفاخرات المتخيَّلة في النثر العربي: تأريخٌ وتقويمٌ**. القاهرة: مجلة قطاع كليات اللغة العربية والشعب المناظرة، العدد الأول. 2/1757 – 1758.

(1) **المرور بين العلمين في مُفَاخرة الحَرَمَيْن**؛ لأبي الحسن عليِّ بن عزِّ الدين يوسف بن الحسن بن محمد الأنصاريِّ الزَّرَنْدِيِّ (ت772هـ). [4]

وكلمة العلمَيْن المذكورة في العنوان من معالم مكَّةَ المكرَّمَة، وهما بناءان مرتفعان بينهما طريقٌ ضيِّقٌ، وهما علامة على دخول الحرم بالنسبة للقادم، ونهايته بالنسبة للمغادر. (الزَّرَنْديّ: 70).

وهي رسالةٌ لطيفةٌ أثنى عليها غيرُ واحد من المتأخِّرين، لكنَّ لغة الرجل كانت أميل إلى السجع حتى ولو أدَّى به الأمر إلى التكلُّف؛ فهو يبدأها بقوله: «مِنْ طَرِيفِ المُحَاضَرَةِ، وظَرِيفِ المُذاكرةِ ما حُكِيَ مِنْ مُناظرة الحَرَمَيْن، ومُنَاضَلَةِ المَحِلَّيْنِ المُعَظَّمَيْنِ، ذُكِرَ أنَّهُما اجْتَمَعا في ميدانِ الفخرِ ومِنْ دُونِهِما حِجَازٌ، وليس معهما كَغَيْرِهِما في هذا المقامِ على الحقيقةِ مجازٌ، فبرز حرمُ المدينةِ الشَّريفةِ، وتَسَنَّمَ شَرَفًا من الشَّرَفِ عَالٍ، واسْتَفْتَحَ المقالَ، وقالَ:...». (الزَّرَنْديّ: 91).

ثمَّ أنطقَ المؤلِّفُ حَرَمَ المدينةِ بفضائله، وردَّ عليه الحرمُ المكِّيُّ، وتبادلا ذكرَ الفضائلِ الشَّرْعيَّةِ والعَقْليَّةِ والتاريخيَّةِ، في عدَّة جولات من أدوار المفاخرة، حاول فيها الكاتبُ التَّحْريشَ بينهما، وإنطاقهما بعبارات تحريضيَّة مثل قوله: «كيف جَسَرَتْ على الآسادِ في آجامِها الأرانِبُ؟ لقد ذلَّ من بالتْ عليه الثَّعالبُ، ولقد زاحَمَتِ الحُمْلانُ القُرَّحَ في المرعَى، واستنَّت الفِصال حتى القَرْعَى». (الزَّرَنْديّ: 98-99). وقوله: «اقعدي في بيت حيائك وقرّي، وعزِّري من هو أكبرُ منك ووقِّري، وإيَّاك ثمَّ إيَّاك فلا تحقِّري، ولا تنقبي عما قد يعود عليك ضرره ولا تنقِّري». (الزَّرَنْديّ: 101). وقوله: «وإيَّاك وبأسي العَتِيد، وبَطْشِي الشَّدِيد، وإن كان لسانُ فَخْرِكِ ذَهبًا فلساني حَدِيد». (الزَّرَنْديّ: 107).

وظلَّت المفاخرةُ تجري على هذا النحو الحواريِّ التَّحْريضيِّ حتى انتهى بهما الأمْرُ إلى المصالحة، وذهبتا إلى السلطان الناصر أبي المحاسن حسن بن محمد بن قلاوون (ت726هـ)، ومدحته المدينةُ المنوَّرة بقصيدةٍ مكوَّنةٍ من ستين بيتًا، مطلعها: (الزَّرَنْديّ: 115-121).

---

(4) انظر ترجمة الزَّرَنْدِيّ في: ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن عليّ العسقلاني. (د.ت). **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**. تحقيق: محمد سيد جاد الحق. القاهرة: دار الكتب الحديثة. 3/ 216؛ ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي. (1935م). **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**. القاهرة: دار الكتب المصرية. 11/ 116- 117. وزَرَنْد التي ينتسب إليها: من أعيان مدن كرمان ببلاد فارس. [ياقوت الحمويّ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي. (1995م). **معجم البلدان**. ط2. بيروت: دار صادر. 138/3]، لكنَّ الرجل تنقل بين دمشق والقاهرة وبغداد، وتولَّى قضاء المدينة المنورة، وبها توفي، والظاهر أنَّ المفاخرة أُلِّفَتْ في القاهرة؛ حيث ارتضى الطرفان السلطان حسن بن قلاوون حكمًا، ومدحه الكاتب على لسان المدينة المنورة بقصيدة طويلة. وقد حقَّق رسالة الزَّرَنْدِيّ: سعيد عبد الفتاح، وطبعت في القاهرة: دار الأمين. عام 1993م، بعنوان: المناظرة بين مكة والمدينة، ونص الرسالة ص 43-83. لكنَّ التحقيق الأمثل والذي عليه أعتمد هو ما قام به: محمد العيد الخطراوي. وبيانات طبعته كالآتي: الزَّرَنْدِيّ، أبو الحسن علي بن يوسف الأنصاري. (1407هـ/ 1987م). **المرور بين العَلَمَيْن في مفاخرة الحَرَمَيْن**. تحقيق: محمد العيد الخطراوي. المدينة المنورة: دار التراث. وعند الإشارة إلى شيء من المفاخر التي أوردها سأحيل إليه في الصلب هكذا: (الزَّرَنْدِيّ: الصفحة)؛ تخفُّفًا من كثرة الحواشي.

سَلَا مَنْ سَلَانِي وَالفُؤَادُ لَهُ سَكَنْ * عَسَى تُقْرَنُ الحُسْنَى إِلَى وَجْهِهِ الحَسَنْ**

ثمَّ تصالحتا في رحاب دياره، وصدر المرسوم الشريف بإجابة سؤالهما، والنظر في أحوالهما، فقبَّلتا الأرض بين يَدَيْه، واشْتَغَلَتا بالدعاء له، والثناء عليه.

(2) **مفاخرة بين مكَّةَ المكرَّمة والمدينة المنوَّرة؛** لمحمد بن سليمان (توفي في أواخر القرن الثامن الهجري). [5]

وهي رسالةٌ في معارضة رسالة الزَّرَنْدِيّ الآنفة الذكر؛ إذْ صرَّح صاحبُها بالمعارضة قائلًا في ختام رسالته: «فإنِّي لـمَّا وقفتُ على المفاخرة التي أنشأها أفْيَقُ [6] البراعة، لسان الأدباء وحسَّان الأدباء عليّ بن يوسف الزَّرَنْدِيّ... أسَمْتُ بَصَري في روضةِ صناعته، فرأيتُ أبْهَى مِنْ جناح الطاووس، ووسَمْتُ فِكْري بوسامة براعته، فوجدتُ ما تصنعُهُ بِحَاسِيها الكؤوس... فوجدتُها محتملةً للزيادة، ومشتملةً على كنوز الإفادة». (ابن سليمان: 46-47).

وقد انطلق الرجل في المقدمة من فكرةٍ فَحْواها أنَّ البلدين متساويان في الرتبة، وكأنَّه يقتل مبدأ المفاخرة من أول فقرة، حيث يقول: «الحمد لله الذي ألبس أطواقَ العليا سَوالفَ الحرمَيْن الشَّريفَيْن، وأقبس آفاق الدنيا عوارف المَحِلَّيْن المُنيفَيْن، وجعلهما لمعصَمَيْ أرضه سُوارَيْن وزِينتَيْن، وسوَّى بينهما في فضل فاتحة الكتاب فأنزلها مرتين في المدينتين، ليحتاز كلٌّ منهما من تحميده نصيب، ويضرب فيهما سهم تمجيده المصيب». (ابن سليمان: 11).

وقد جعل الكاتب هذه المساواة سببًا لبدء المفاخرة؛ إذ اعتقدت كلُّ بلدة أنَّها أولى بالتعظيم والاحترام، وأنَّ لها من الله تعالى الإكرام. (ابن سليمان: 13).

والحقُّ أنَّ مفاخرة محمد بن سليمان أسلسُ لغةً من مفاخرة الزَّرَنْدِيّ؛ لأنَّه لم يُسْرف في الصناعة اللفظيَّة كما أسرف سلفه، ولم يُثْقِلْها بالشعر كما فعل الأول الذي ضمَّنَ مفاخرته مِدْحة من ستين بيتًا، وإنَّما ركز على المفاخر الدينيَّة والتاريخيَّة مستعملًا أساليب الحجاج العقليِّ الناضج، ولكنَّها ليست أحكمَ بناءً؛ حيث لم يوفَّقْ من وجهة نظري في مُفْتَتَحِه الذي أعلن فيه التساوي بين المدينتين، ولعلَّ الأليق أن يجعله في ختام رسالته أسوة بكثيرٍ ممن خاضوا غمار هذا الفنِّ قبله، وبالتالي لم يُنْهِهَا بالتحكيم، ولا بتفضيل أحد الحرمَيْن الشَّريفَيْن على الآخر؛ لأنَّه أنهاها من أول فقرة بإعلان تساويهما في الفضل والرتبة.

وفي سَوْقِه لحجج الفريقين لا نجد روح المنافسة التي هي عماد فنِّ المفاخرة، وإنَّما كل مدينة تقدم مَفْخَرَةً مُناظرةً لأختها، دون أن تُعَقِّب على الأخرى بشيء من النَّقْد بله

---

(5) لم أقفْ للمؤلِّف على ترجمةٍ مُسْتقلَّةٍ، وقد حقق رسالته محمد الششتاوي، واستظهر أنَّ صاحبها ألفها بين عامي 762-772 هـ، أي بين عام تأليف الزَّرَنْدِيّ لرسالته وعام وفاته؛ لأنَّ محمد بن سليمان صرح بمعارضته للزرنديّ، ولم يترحَّم عليه، مما يوحي بأنه كان حيًّا عند تأليف المفاخرة. انظر: محمد بن سليمان. (1419هـ/ 1999م). **مفاخرة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة**. تحقيق: محمد الششتاوي. القاهرة: دار الآفاق العربية. ص 7، ونص المفاخرة في الكتاب ص11-47. وعند الإشارة إلى شيء من المفاخر التي أوردها سأحيل إليه في الصلب هكذا: (ابن سليمان: الصفحة)؛ تخفُّفًا من كثرة الحواشي.

(1) يقال: أَفْيَقَ الشاعر إذا أتى بالعجب. [إبراهيم مصطفى، وأحمد حسن الزيات، وحامد عبد القادر، ومحمد علي النجار. (1425هـ/ 2004م). **المعجم الوسيط**. ط4. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية. ص 708].

النقض، وحسبك أن تقرأ هذه الفقرات الأربع في مطلع المفاخرة: (ابن سليمان: 13-14).

فقالت مكَّةُ: كان لي مبدأ الوحي والهداية.

قالت المدينةُ: كان لك البداية، ولي النهاية.

قالت مكَّةُ: كان لي من قبلك متعبَّدُهُ.

قالت المدينةُ: كان فيَّ من قبلك مسجده.

قالت مكَّةُ: كانت زوجته أم بناته الأربع من بناتي.

قالت المدينةُ: كانت زوجاته التسعُ من حسناتي.

فقالت مكَّةُ: كانت أمُّه آمنة من عقائلي.

قالت المدينةُ: كانت سلمى زوجة جدِّه عبد المطَّلب من قبائلي.

وهكذا يمضي صدر هذه المفاخرة على هذا النحو الرتيب متنقلًا بين المفاخر بأبعادها المختلفة، وإن كان قد حاد عن هذا النمط في منتصف الرسالة، عندما بدأ الحوار الناقد يشتدُّ بين الفريقين مما أضفى على النصِّ شيئًا من الحيويَّة الدافقة، والحرارة الحواريَّة المنشودة، وذلك في مثل قوله على لسان المدينة: «لقد أبعدتِ في الشَّطَط، وخَلَطْتِ الصوابَ بالغلط، ومددْتِ النَّفَس في افتخارك، وأرسلْتِ خليجًا من زَخَّارِكِ، إنْ كُنْتِ ريحًا فقد لاقَيْتِ إعصارًا، أو كُنْتِ نَهرًا فقد ساقَيْتِ تيَّارًا». (ابن سليمان: 32).

وبعد أشواطٍ طِوالٍ من تبادل المفاخر أثنَتْ مكَّةُ على المدينة بأنَّها السيدة المعمورة الأركان، المطهَّرة المكان، وأنَّ من حجَّ ولم يزرها فهو محروم، فردَّتِ المدينة على الثناء بثناءٍ معترفةً بأنَّها تُحْفَة ذي الجلال والإكرام، ففيها الكعبةُ المنصوبةُ، والرحمةُ المصبوبةُ، والبُغْيَةُ المطلوبةُ، والذريعة الموصلة إلى رضوان الله الأكبر. وكان هذا إشعارًا بتمام المفاخرة، ودليلًا على اعترافِ كلٍّ منهما بفضائل الأخرى، فهذا الاعتراف هو كلام من لا ينطق عن الهوى، ويُبْرِز حقيقة الاستوا. (ابن سليمان: 45-46).

(3) **الحُجَجُ المُبِينَةُ في التفضيل بين مكة والمدينة؛** لجلال الدين السيوطي (ت911هـ).

وهي أشبه ما تكون برسالة علميَّة في المفاضلة بين الحرمَيْن الشريفَيْن، وليست مفاخرةً بالمعنى الفنيِّ القائم على الحجاج والمناظرة، حيث ابتدأها بمدخل أعلن فيه رأيه الذي خالف فيه مذهب الشافعيَّة الذين يقولون بتفضيل مكَّة؛ ربَّما لأنَّ الإمام الشافعيَّ مكيُّ الأصل، إلى مذهب المالكيَّة الذين يميلون إلى تفضيل المدينة المنوَّرة؛ ربَّما لأنَّ الإمام مالك هو إمام دار الهجرة؛ حيث قال السيوطيّ: «فقد وقع الكلام في التفضيل بين مكَّةَ والمدينة، فملْتُ عمَّا رجَّحه أئمَّة مذهبنا إلى مذهب مالكٍ رحمه الله، وقلْتُ بتفضيلٍ لما قام عندي من الأدلَّة في ذلك». (7)

ثم جاء الفصل الأول عن أسماء البلدين، ضمَّنَه رسالةً مُلْغِزَةً دارتْ بينه وبين الشهاب المنصوريِّ (ت887هـ) حول أحد أسماء المدينة المنورة، وجاء الفصل الثاني عن حدود البلدين، استعرض فيه جملةً من الآثار حول حدود البلدين لمعرفة الخط الفاصل بين الحل والحرم، وناقش فيه قضية جبل ثور أهو بمكة أم بالمدينة؟ ثم جاء الفصل الثالث في المفاضلة بينهما، مشيرًا إلى مذهب الإمام الشافعيِّ وكثير من الفقهاء القائلين بتفضيل مكة، ثم إلى مذهب الإمام مالك وجماعة من الفقهاء بتفضيل المدينة، وهذا هو عماد الرسالة؛ حيث أورد جملةً من الحُجَج النقليَّة والعقليَّة التي اعتمد عليها كلُّ فريق، ثم قال: إنَّ

(7) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الخضيري. (1405هـ/ 1985م). **الحجج المبينة في التفضيل بين مكة والمدينة.** تحقيق: عبد الله محمد الدرويش. دمشق، بيروت: دار اليمامة. ص 17. وعند الإشارة إلى شيء من المفاخر التي أوردها سأحيل إليه في الصلب هكذا: (السيوطي، الحجج: الصفحة)؛ تخفُّفًا من كثرة الحواشي.

المختار هو التوقف عن التفضيل؛ لتعارض الأدلَّة، بل الذي تميل النفس إليه تفضيل المدينة، ثم أشار إلى جملةٍ من الفضائل التي اختصَّت بها المدينة دون مكَّة، ككونها فُتِحَت بالقرآن، بينما فُتِحتْ مكَّة بالسيف، وتضمُّنها قبر الرسول ρ وروضَتَه الشَّرِيفة... وغيرها منتهيًا إلى أنَّه إذا تأمَّل ذو البصيرة لم يجد فضلًا أعطيتْهُ مكَّة إلا وأعطيت المدينةُ المنوَّرة نظيرَه أو أعلى منه، ودخل في مُعْتَرَكٍ بلا طائل؛ ككون قبره ρ أفضل بقاع الأرض، ناقلًا دعوى بعضهم بأنَّه أفضل من الكعبة، بل أفضل من العرش! ثمَّ ختم الرسالة بجملة من الفوائد المنثورة انتقاها من كتاب "أخبار المدينة" للزبير بن بكَّار (ت256هـ)، وكلُّها تتعلق بفضائل المدينة المنوَّرة مما يدعم مذهبه.

والكتاب أشْبَهُ ما يكون برسالةٍ علميَّةٍ مبوَّبةٍ تكاد تقتصر على سَرْد الحجج النقليَّة والعقليَّة، وتُدْخلنا في قضايا خلافيَّة تاريخيًّا وجغرافيًّا وعقديًّا، دون أنْ تلبس لباسًا قصصيًّا تخييليًّا، أو ثوبًا حواريًّا تحريضيًّا يغري المتلقِّي بالمتابعة.

(4) ساجعة الحرم في المفاخرة بين المدينة والحرم؛ لجلال الدين السيوطيِّ (ت911هـ).

وهي مقامة كتبها السيوطي في شوال عام 967هـ، وقد بدأها بذكر مفاخر مكَّة مستشهدًا بعددٍ من الآيات والأحاديث والآثار حول فضائلها، ثم سرد أسماءَها مستدلًا بأنَّ كثرة الأسماءِ تدلُّ على شرف المسمَّى، ثم ذكر جملةً مما اختصَّ به الحرمُ المكيُّ، وعدَّدَ فضائل الكعبة، وبئر زمزم، وجبل عرفات وغيرها من المناسك. ثمَّ انتقل إلى الحديث عن مفاخر المدينة المنورة، فهي ثانية الحرمين، والمشاركة لمكَّة في التفضيل والتكريم، وقد عدد أسماءها، وذكر جملة من الآثار الواردة في فضائلها، مشيرًا إلى مذهبه الآنف الذكر في تفضيل الروضة قائلًا: إنَّها أفضل البقاع، من غير خُلْفٍ ولا نزاعٍ، بل هي أفضل من الكعبة، ومقدَّمَةٌ عليها في الرتبة، ونقل عن بعضهم أنَّها أفضل من العرش العظيم. ثم ذكر جملة مما قاله الشعراء في فضل كلِّ مدينةٍ منهما، وختمها دون تحكيم أو تفضيل، وإن كان أكثر ميلًا إلى المدينة المنوَّرة عملًا بمذهبه، وهو ما اتضح في تفضيله الروضة الشريفة على جميع البقاع. (8)

والمقامة بهذه الصورة لا تلبس ثوبًا قصصيًّا تخييليًّا، وإنما هي أشبه ما تكون برسالته السابقة التي تتضمَّنُ حُجَجًا نقليَّة وعقليَّة محضةً دون أن تتَّشح بالثوب الفنيِّ التخيليِّ الآسر.

ثانيًا: تَجَلِّياتُ التَّعْظِيمِ وأبْعادُهُ:

للتعظيم أبعادٌ شتَّى تنقلك من النقليِّ إلى العقليِّ، ومن التاريخيِّ إلى الجغرافيِّ، ومن الإنسانيِّ إلى الرمزيِّ، وتدخل بك في غيابات النفس الإنسانيَّة، وأحيانًا تطير بك على بِساط ريح الخيال إلى عالم الأساطير؛ فتفتح عينيك على عوالمَ مليئةٍ بالدهشة، تدفع عنك السآمة والملل، وتُرغِّبُك في متابعة الحوار لتعرف المنتصر من المنهزم، وهو ما يجعل هذه النصوص مختلفة كلَّ الاختلاف عن التآليف الواردة في فضائل مكَّة أو المدينة أو غيرها؛ فكتب الفضائل يغلب عليها الجانب النقليُّ، ولا تبرح دائرة السرد وحكاية الأخبار، أمَّا نصوص المفاخرة فيغلب على معظمها الجانب الحواريُّ الذي يمتِّع ناظريك في روضة متنوعة الأزهار، ويشبعك من مائدة متنوعة الطعوم والمذاقات؛ وحسبنا أنْ نرى هذه الأبعاد البالغة التنوُّعِ والثراء، علمًا

(8) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الخضيري. (1989م). **شرح مقامات جلال الدين السيوطي**. تحقيق: سمير الدروبي. بيروت: مؤسسة الرسالة. ونص المقامة في الكتاب: 1/ 499-553. وعند الإشارة إلى شيء من المفاخر التي أوردها سأحيل إليه في الصلب هكذا: (السيوطي، ساجعة: الصفحة)؛ تخفُّفًا من كثرة الحواشي.

بأنَّها تتداخل أحيانًا؛ فحلول سيدنا إبراهيم عليه السلام بمكة له بعد دينيٌّ وتاريخيٌّ وإنسانيٌّ، ووجود الحجر الأسود له بعد جغرافيٌّ ورمزيٌّ... وهكذا.

(أ) البُعْدُ الدِّينيُّ:

ونقصد به تلك الفضائل التي تتعلق بالمكانة الدينيَّة لمكَّة المكرَّمة من حيث ما ورد في فضائل الصلاة في البيت الحرام، وثواب الحجِّ إليها، وأداء الطاعات في رحابها، وتغليظ عقوبة من يقترف المعاصي على ترابها، إلى غير ذلك مما ورد في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، وهي جوانب عديدة ألحَّ عليها مؤلِّفو النصوص المدروسة، من أهمِّها:

(1) أنَّ مكَّة المكرَّمة ذُكِرتْ في القرآن الكريم باسمها وأوصافها عشرات المرَّات. (ابن سليمان: 16).

(2) أنَّ الصلاة في المسجد الحرام تَعْدِل مائة ألف صلاة فيما سواه من المساجد. (الزَّرَنْديّ: 94)، (السيوطيّ، الحُجَج: 39).

(3) أنَّ الملائكة الكرام يطوفون حول البيت صفوفًا كلَّ يومٍ. (الزَّرَنْديّ: 94).

(4) أنَّ الله عز وجلَّ يُنَزِّل فيها في كلِّ يوم مائة وعشرين رحمةً. (الزَّرَنْديّ: 99-100).

(5) أنَّ الرسول ρ أعلن أنَّها أحبُّ بلاد الله إلى الله، وأحبُّ بلاد الله إليه، ولولا أنَّ قومه أخرجوه منها ما خرج. (ابن سليمان: 15)، (السيوطيّ، الحُجَج: 38).

(6) أنَّ الله سبحانه وعد رسوله ρ بالعودة إليها في قوله: (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ). [القصص: 85]. (ابن سليمان: 17).

(7) أنَّ الصلاة فُرِضَتْ في مكَّة، وهي أجلُّ الأركان العملية للإسلام، وفيها شُرِعت الجمعة لتكون عيدًا للمسلمين. (ابن سليمان: 39).

(8) أنَّ فريضةَ الحجِّ لا تكون إلا فيها، وتشارك غيرها في بقية أركان الإسلام. (ابن سليمان: 17).

(9) أنَّ الله أوجب استقبالها في الصلاة حيثما كان المصلِّي. (الزَّرَنْديّ: 93-94)، (ابن سليمان: 30)، (السيوطيّ، الحُجَج: 40).

(10) أنَّه نزل في فتحها قرآن يُتْلَى إلى يوم القيامة، وبه سميت سورة الفتح، ولا هجرة بعد الفتح. (ابن سليمان: 18).

(11) أنَّه وقعت فيها كثير من معجزات الرسول ρ، وحسبنا معجزة الإسراء التي انطلق موكبها من مكَّة، وما كان في مشاهد تلك الليلة من الآيات الكبرى. (ابن سليمان: 31).

(12) أنَّه لا يدخلها أحدٌ ممن نوى النُّسُكَ إلَّا محرمًا. (السيوطيّ، الحُجَج: 40).

(13) أنَّ الله حرَّم استقبالها واستدبارها عند قضاء الحاجة. (السيوطيّ، الحُجَج: 40).

(14) أنَّ الله أباح التقبيل للحجر الأسود، واستلام الركن اليماني، ولا يكون ذلك لغيرهما. (السيوطيّ، الحُجَج: 40).

(15) أنَّ الله منع المشركين من دخولها. (السيوطيّ، الحُجَج: 40)، (السيوطيّ، ساجعة: 507/1).

(16) أنَّ الله حرَّمها يوم خلق السماوات والأرض. (السيوطيّ، الحُجَج: 40).

(17) أنَّ المعصية فيها مضاعفةُ العقاب؛ لقوله تعالى: (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ

عَذَابٍ أَلِيمٍ)؛ [الحج: 25] حتى إنَّ من قتل فيها خطأً غُلِّظَتْ عليه الدية. (السيوطيّ، ساجعة: 507/1).

(18) أنَّ العمرة غيرُ واجبة على أهلها، والمسنون في حجِّهم الإفراد. (السيوطيّ، ساجعة: 507/1).

(19) أنَّ بها خمسة عشر موضعًا يستجاب فيها الدعاء. (السيوطيّ، ساجعة: 516/1).

(20) أنَّ مسجدها ممتلئٌ دومًا بالطائفين والعاكفين والرُّكَّع السجود. (الزَّرَنْديّ: 106).

(ب) البُعْدُ التاريخيُّ:

والمقصود به جوانب التفضيل المتعلقة بالفضائل التاريخيَّة؛ من حيث أوليَّتها وتحريمها وتعظيمها منذ الجاهلية، وامتداد ذلك إلى الإسلام مع مزيد من التعظيم والتكريم، وقد ذكر المؤلفون جملة من تلك الفضائل ذات البعد التاريخي؛ أهمُّها:

(1) أنَّ المسجد الحرام هو أول بيت وضع للناس. بنصِّ قوله تعالى: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ). [آل عمران: 96]. (الزَّرَنْديّ: 93). (ابن سليمان: 16).

(2) أنَّ الفيل لما توجَّه لهدم الكعبة بَرَك، وأبرهة لما حاول إهلاكها هلك؛ إذْ حماها ربها بطير أبابيل، ترميهم بحجارة من سجِّيل. (ابن سليمان: 29).

(3) أنَّها كانت حرمًا آمنًا في الجاهلية والإسلام. (السيوطيّ، الحُجَج: 40).

(4) أنَّها شهدتْ في الجاهليَّة حِلْفَ المُطَيَّبين الذين غمسوا أيديهم في الطِّيب، وتقاسموا الرفادة والسقاية وأعمال الخير بمكَّة، ثم حلف الفضول لنصرة كلِّ مظلوم، حتى إنَّ النبي ρ شهده قبل الإسلام، وأعلن أنَّه لو دُعِيَ إليه في الإسلام لأجاب. (ابن سليمان: 41-42).

(5) أنَّ النبي ρ قضى فيها أيام صباه وشبابه؛ فهي البلد التي عقَّ فيها الشبابُ عليه تمائمَه، وأوَّلُ أرضٍ مسَّ جلدَهُ ترابُها. (الزَّرَنْديّ: 95)، (ابن سليمان: 14).

(6) أنَّ النبيّ ρ كان يتعبَّد فيها قبل نزول الوحي عليه. (ابن سليمان: 13).

(7) أنَّها شهدت مبدأ نزول الوحي على الرسول ρ، فأول ما نزل من القرآن العظيم على الرسول ρ كان في غار حراء بمكة المكرمة. (ابن سليمان: 13، 27).

(8) أنَّ النبي ρ بمكة ثلاثة وخمسين عامًا، ولم يقم في المدينة إلا عشر سنوات. (الزَّرَنْديّ: 99). (ابن سليمان: 13). (السيوطيّ، الحُجَج: 40).

(ج) البُعْدُ الإنسانيُّ:

ونعني به المفاخر المتعلِّقة بمن حلُّوا بها، وعاشوا في رحابها من الأنبياء المرسلين، والخلفاء الراشدين، والعلماء العاملين وغيرهم ممن يُشَكِّلون دِرعًا إنسانيًّا يجلِّل المكان بكثير من الفخار، ويجلِّله المكان بتاج الوقار كذلك، ومن أهمِّ المفاخر ذات البعد الإنسانيِّ مما أشار إليه مؤلِّفو النصوص المدروسة ما يلي:

(1) أنَّه حلَّ فيها سيدنا إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، حيث عملا على رفع القواعد من البيت. (الزَّرَنْديّ: 99)، (السيوطيّ، الحُجَج: 40).

(2) أنَّه عاش فيها الأبوان الذبيحان، الذبيح الأكبر سيدنا إسماعيل، والذبيح الأصغر عبد الله بن عبد المطلب. (ابن سليمان: 15).

(3) أنَّ من أعيانها السيدة خديجة، حيث تزوجها النبي ρ في مكة، وفيها رُزِقَ بجلِّ أبنائه وبناته. (ابن سليمان: 13).

(4) أنَّ السيدة آمنة بنت وهب من عقائل أهل مكَّة، وكذا عمَّاته ρ وخالاته. (ابن سليمان: 14).

(5) أنَّ جُلَّ زوجات النبيّ ρ اللائي تزوَّجَهُنَّ في المدينة من أصول مكيَّةٍ، فلم ينكحْ هناك أَوْسِيَّةً أو خَزْرجيَّة. (ابن سليمان: 14).

(6) أنَّ منها المهاجرين الأوَّلين الذين شَهِدَ الله لهم بالصدق في قوله: (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَالَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)، [الحشر: 8] ومنهم من هاجر الهجرتَيْن، وفاز بالحُسْنَيَيْن. (ابن سليمان: 16).

(7) أنَّ منها الشهداء الذين جاهدوا في سبيل الله، فمنهم من نال الشهادة، ومنهم من قطعت يداه ورجلاه في سبيل إعلاء كلمة الله. (ابن سليمان: 24).

(8) أنَّ منها الخلفاء الراشدين الأربعة، والعشرة المبشرين بالجنة، وجمهور أبطال الإسلام وصناديده الذين أبلوا في الجهاد في سبيل الله بلاءً حسنًا. (ابن سليمان: 19، 24-26).

(9) أنَّ منها سيدات بيت النبوة، وفُضْلَيات الصحابيات مثل فاطمة بنت الرسول، وأسماء ذات النطاقين، وسُكَيْنة بنت الحسين، وعائشة بنت طلحة... وغيرهنّ. (ابن سليمان: 23).

(10) أنَّ من أبنائها كثيرًا من العلماء والفقهاء، وحسبنا منهم الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعيّ القرشي المطلبيَّ. (ابن سليمان: 44).

(11) أنَّ من عاش فيها مجاورًا حرم الله، لقب بجار الله مثل الإمام أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشريّ (ت538هـ)، الذي جاور في مكَّة، وألف فيها تفسير الكشاف، الذي هو لداء الجهل كالشافي. (ابن سليمان: 44).

(د) البُعْدُ الجغرافيُّ:

ونقصد به ما يتعلق بالأماكن والمشاعر المقدسة الموجودة على أرضها، وهي كثيرة للغاية على رأسها المسجد الحرام الذي سبقت الإشارة إليه دينيًّا باعتبار مضاعفة ثواب الصلاة فيه، وتاريخيًّا باعتباره أول بيت وضع للناس، ويضاف إلى ذلك:

(1) أنَّ فيها الكعبة المشرَّفة التي تقابل البيت المعمور في السماء. (الزَّرَنْديّ: 93-94)، (ابن سليمان: 30)، (السيوطيّ، الحُجَج: 40).

(2) أنَّ فيها مقامَ إبراهيم، وفيه أعظم البينات؛ لقوله تعالى: (فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ). [آل عمران: 97]. (الزَّرَنْديّ: 93)، (ابن سليمان: 16).

(3) أنَّ فيها كثيرًا من المشاعر المقدسة مثل: الصفا والمروة والتنعيم وزمزم وعرفة والمزدلفة غار ثور وغار حراء وكدي وكداء وغيرها من المناسك والمشاعر العظام. (الزَّرَنْديّ: 94، 100)، (ابن سليمان: 17)، (السيوطيّ، الحُجَج: 40).

(هـ) البُعْدُ الرَّمْزيُّ:

ونعني به الدلالات الرمزيَّة للألفاظ المستعملة في أسمائها عامَّة، وفي أسماء بقاعها خاصَّة، والتي تحمل أبعادًا رمزيَّة وظَّفها الأدباء توظيفيًا جماليًّا أضْفَى على نصوصهم كثيرًا من الثراء، وأطيافًا رمزيَّة بالغة الإيحاء، من ذلك:

(1) أنَّها كثيرة الأسماء والكنى والألقاب، وقد عدَّ لها العلماء أكثر من ثلاثين اسمًا، وكثرةُ الأسماء تدلُّ على شرف المسمَّى بها. (السوطي، ساجعة: 504/1).

(2) أنَّها سمِّيتْ بمكَّة؛ لأنَّها تجتذب السيول إليها، وتجتذب إلى نفسها ما في البلاد من الأقوات في المواسم. أو بالأحرى تجتذب قلوب العاشقين إليها، كما أنَّها تمكُّ الذنوبَ عن زائريها، أي تُذْهِبها. (السيوطيّ، الحُجَج: 19).

(3) أنَّ من أسمائها بكَّة؛ لأنَّها تبكُّ أعناق الجبابرة، وتقصم ظهور القياصرة. (ابن سليمان: 15).

(4) أنَّها هي أمُّ القرى؛ لأنَّها أقدم ممَّا سواها، وربما دُحِيتْ منها الأرض، فهي كالقلب وما حولها كالأعضاء. (الزَّرَنْديّ: 99).

(5) أنَّ في الكعبة الحجر الأسود الذي يشبه سواد العين الذي ترى به، أو يشبه مشكاةً من الجنة فيها مصباح. (الزَّرَنْديّ: 94).

(6) أنَّ في الكعبة الميزاب الذي تُصَبُّ منه الرحمةُ صبًّا، ويَغْدُو المشتاق إليه مُغْرمًا ويروحُ صَبًّا. (الزَّرَنْديّ: 100).

(7) أنَّ فيها صعيدَ عرفات الذي هو رمزٌ للتعارف بين الخلائق، ومنه يعرف مَنْ ينافسها قدره، فيلزم حدَّه. (الزَّرَنْديّ: 105).

(8) أنَّ الجمراتِ التي يستخدمها الحجاج في الرمي أثناء الحج إنَّما هي جمراتٌ تحرق خصومها. (الزَّرَنْديّ: 105).

(9) أنَّ فيها وادي محسِّر الذي يملأ قلب خُصُومِها بالحسرات. (الزَّرَنْديّ: 105).

(و) البُعْدُ النفسيُّ:

والمقصودُ به ما يشعر به المسلم من السكينة والطمأنينة في البلد الحرام، ففيها راحةُ النَّفْس، وقُرَّة العين، وطمأنينة القلب، وسكينة الفؤاد، وحسبك ما يملأ قلوب المحبِّين من الوجد والحنين، وما يعتريها من الوجل والإشفاق عند الفراق، فترى الدموع تسحُّ على الخدود، والقلب يكاد يطير من قفص الصدر ليبقى معها في عناق ممدود، وهذا هو هُوِيِّ القلب إليها؛ استجابة لدعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام: (فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ) [إبراهيم: 37]، فمن أتاها وقلبه سليم يروح وقلبه من الوجد بها سليم. أي مريض بحبِّها. (الزَّرَنْديّ: 106).

(ز) البُعْدُ الأسطوريُّ:

على الرغم من كثرة الفضائل الثابتة بالقرآن الكريم والسنَّة الصحيحة دخل الموروث الشعبيُّ بابَ فضائل الحرمَيْن الشريفَيْن، إذْ أورد أصحاب المفاخراتِ عامَّة والإمام السيوطيّ خاصَّة جُملةً من الحكايات الأسطوريَّة المُخْتَلَقة التي ربما أخذوها مما يردِّده العوامُّ دون وعيٍّ، أو من الأحاديث الضعيفة والموضوعة دون تحقيق، وسوَّدوا بها كثيرًا من صفحات نصوصهم، وكلُّها أمورٌ غيبيَّة لا يجوز الخوْضُ فيها إلا بدليلٍ قطعيِّ الثبوتِ والدَّلالة، ، وقد حذر كثير من العلماء من الخوض في لججها، يقول الإمام الشوكانيُّ (ت1250هـ): «وقد توسَّعَ المؤرِّخون في ذكر الأحاديث الباطلة في فضائل البلدان، ولا سيَّما بلدانهم؛

فإنَّهم يتساهلون في ذلك غاية التساهل، ويذكرون الموضوع، ولا ينبِّهُون عليه».[9]

وهو ما جعل الباحث لا يتورَّع عن وَصْفها بالأساطير، من تلك الأمور:

(1) أنَّ الله عز وجلَّ ما أرسل سحابًا إلا مرَّ بمكَّة، ثمَّ يمضي حيث أمره الله من الأرض. (السيوطيّ، ساجعة: 509/1).

(2) أنَّ النظر إلى الكعبة يَعْدِلُ عبادة سنةٍ. (السيوطيّ، ساجعة: 510/1).

(3) أنَّ الكعبةَ سُمِعَ لها أنينٌ عالي الصوت عندما رُمِيَتْ بالمنجنيق أيام عبد الله بن الزبير (ت73هـ). (السيوطيّ، ساجعة: 512/1).

(4) أنَّ الكعبة تزور قبر سيد المرسلين، وتتكفَّل بالشفاعة فيمن حجَّ إليها من المؤمنين. (السيوطيّ، ساجعة: 512/1).

(5) أنَّ أرواح موتى المسلمين تجتمعُ في بئر زمزم. (السيوطيّ، ساجعة: 520/1).

الخاتمة:

هذا غيضٌ من فيض، وزهرٌ من رَوْض مفاخر البلد الحرام الموجبة لتعظيمه، ويطيبُ للباحث في ختام هذا البحث أن يقرِّرَ النتائج الآتية:

(1) تحوَّل الأدباءُ بفنِّ المفاخرات من المواجهات المباشرة في عالم الواقع كما كان في الجاهليَّة إلى المبارزات الفنيَّة في عالم الخيال، بصورة تعكس الرقيَّ الحضاريَّ الذي بلغَتْهُ الحياة العقليَّة للأمَّة العربيَّة، والتي ارتفعت بها عن وَهْدة التنابذ بالألقاب، وسرد المعايب والسِّباب.

(2) كان للحرمَيْن الشريفَيْن حضورٌ حيٌّ في الأدب العربيِّ شعرًا ونثرًا وتأليفًا، وتجلَّى ذلك تمامًا في أدب الرحلات، وأدب المفاخرات الخياليَّة الذي تجرَّد في هذا الموضوع عن النمطية، فلم ترتبط فيه المفاخرة بموجةٍ حضاريَّةٍ معيَّنةٍ؛ لأنَّ مكانة الحرمَيْن ثابتة لا تزعزعها عواصف السياسة، ولا موجات المدِّ أو الجزر الحضاريّ.

(3) تكاد تنحصر النصوص التي بين أيدينا في فنِّ المفاخرة بين الحرمَيْن الشَّريفَيْن في القرنين الثامن والتاسع الهجريين؛ وقد كُتِبَتْ في القاهرة على ما يبدو، بعدما أصبحت القاهرة عاصمةً للثقافة العربيَّة والإسلاميَّة في عصر سلاطين المماليك.

(4) تختلف نصوصُ المفاخرة كلَّ الاختلاف عن التآليف الواردة في فضائل مكة أو المدينة أو غيرها؛ فكتب الفضائل يغلب عليها الجانب النقليُّ، ولا تبرح دائرة السَّرْد وحكاية الأخبار، أمَّا نصوص المفاخرة فيغلب عليها الجانب الحواريُّ الذي يفتح عين المتلقِّي على عوالم مليئة بالدهشة، فيدفع عنه السآمة والملل، ويرغِّبه في متابعة الحوار ليعرف المنتصر من المنهزم.

(5) تنوَّعَتْ تجليات تعظيم البلد الحرام في أبعاد مختلفة ما بين دينيٍّ، وتاريخيٍّ، وإنسانيٍّ، وجغرافيٍّ، ونفسيٍّ، بالإضافة إلى جملة من الأبعاد الرمزيَّة والأسطوريَّة؛ مما يعطي هذا الموضوع تفرُّدًا وَثراءً بلا حدود.

---

(9) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد. (2005م). **الفوائد المجموعة في الأحاديث الضعيفة والموضوعة**. تحقيق: رضوان جامع رضوان. مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز. 535/2.

(6) لم يقمْ طرفُ المعارضة بذكر أيِّ شيءٍ يَشِينُ الحرمَيْن الشريفَيْن على نحو ما ذكر خصومُ البصرة والكوفة وبغداد ودمشق والقاهرة في مفاخراتهم؛ لأنَّه لا توجد مثالبُ أصلًا، فهي بقعةٌ بيضاءُ الصفحة، نقيَّةُ المُحيَّا، مسلَّمةٌ لا شِيَةَ فيها.

(7) تعكسُ هذه المفاخرات جوَّ الحريَّة الفكريَّة التي تمتَّع بها المفكِّرون المسلمون على مدار تاريخهم الممتدّ، فالإمام السيوطيُّ شافعي المذهب، والشافعيَّة وجمهور العلماء يفضلون مكَّة عادة، لكنَّه مال إلى مذهب المالكية في تفضيل المدينة المنوَّرة.

(8) لجأ بعض المؤلفين إلى إيراد أحاديث ضعيفةٍ، وآثارٍ لا وزن له في سبيل نصرة مذهبهم، مما أضْفَى على بعض المحاور طابعًا أسطوريًّا، وهي ظاهرة قديمةٌ متجدِّدةٌ نبَّه إليها علماء الحديث، وحذَّروا من الخوض في لُجَج الأحاديثِ الموضوعةِ في فضائل البلدان

(9) أقحم بعضُ المؤلفين أنفسَهم في قضايا خلافيَّة شائكةٍ، مثل كون الفاتحة نزلت مرَّتين: مرَّةً بمكَّة ومرَّةً بالمدينة، ومعلوم أنَّ مكيَّة سورة الفاتحة أو مدنيَّتها محلُّ خلاف كبير بين علماء التفسير وعلوم القرآن، وكذلك قضيَّة المفاضلة بين الروضة النبويَّة الشريفة والكعبة المشرَّفة، بل رفع بعضُهم عقيرتَه بالمفاضلة بينها وبين العرش العظيم، وما كان ينبغي الخوض في مثل هذه الأمور الخلافيَّة، أو الافتراضات الغيبيَّة؛ لتبقى المفاخرةُ محافظةً على نهجها الفنيِّ الخالص.

المصادر والمراجع

(1) ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي. (1935م). **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**. القاهرة: دار الكتب المصرية.

(2) ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن عليّ العسقلاني. (د.ت). **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**. تحقيق: محمد سيد جاد الحق. القاهرة: دار الكتب الحديثة.

(3) الجندي، أبو سعيد الفضل بن محمد (1440هـ). **فضائل مكَّة**. تحقيق: أبو عبيدة جودة بن محمد. (نشرة خاصة بالمحقق مهداة إلى المكتبة الشاملة).

(4) الزرندي، أبو الحسن علي بن يوسف الأنصاري. (1407هـ/ 1987م). **المرور بين العلمين في مفاخرة الحرمين**. تحقيق: محمد العيد الخطراوي. المدينة المنورة: دار التراث.

(5) السواحلي، مصطفى محمد رزق. (1428هـ/ 2007م). **المفاخرات المتخيَّلة في النثر العربي: تأريخٌ وتقويمٌ**. القاهرة: مجلة قطاع كليات اللغة العربية والشعب المناظرة، العدد الأول.

(6) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الخضيري. (1405هـ/ 1985م). **الحجج المبينة في التفضيل بين مكة والمدينة**. تحقيق: عبد الله محمد الدرويش. دمشق، بيروت: دار اليمامة.

(7) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الخضيري. (1989م). **شرح مقامات جلال الدين السيوطي**. تحقيق: سمير الدروبي. بيروت: مؤسسة الرسالة.

(8) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد. (2005م). **الفوائد المجموعة في الأحاديث الضعيفة والموضوعة**. تحقيق: رضوان جامع رضوان. مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز.

(9) الصديق، حسن. (2000م). **المناظرة في الأدب العربي الإسلاميّ**. القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان).

(10) الغبَّان، محمد بن عبد الله بن عايض بن عوض. (1421هـ). **فضائل مكة الواردة في السنة جمعًا ودراسة**. السعودية، الدمَّام: دار ابن الجوزي.

(11) محمد بن سليمان. (1419هـ/ 1999م). **مفاخرة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة**. تحقيق: محمد الششتاوي. القاهرة: دار الآفاق العربية.

(12) مصطفى، إبراهيم؛ والزيات، أحمد حسن؛ وعبد القادر، حامد؛ والنجار، محمد علي. (1425هـ/ 2004م). **المعجم الوسيط**. ط4. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية.

(13) الواحديّ، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري. (1412هـ/ 1992م). **أسباب النزول**. تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان. ط2. السعودية، الدمَّام: دار الإصلاح.

ياقوت الحمويّ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي. (1995م). **معجم البلدان**. ط2. بيروت: دار صادر.